مقدّمة المشروع
الاستعماريّة المستدامة
الجغرافيا العربيّة-الإسلاميّة حقلُ اختبار

د. محمود حيدر

استحوذت الدّراسات حول الاستعمار -بمفاهيمه، ومصطلحاته، وإجراءاته التّاريخيّة- مساحات واسعة في الموسوعات، والمعاجم الحديثة. وهذه الدّراسات سوف تزدهر بقوّة ابتداءً من القرن التّاسع عشر، الّذي شكّل مستهل التّوسّع الاستعماريّ الآتي من الغرب نحو البلاد العربيّة، والإسلاميّة، وكذلك في دول، ومجتمعات آسيا، وأفريقيا، وأميركا اللاّتينيّة.

لا من ريب، أنّ التّفكير بالحال الاستعماريّة في مجتمعاتنا هو من الضّرورات المعرفيّة الكبرى الّتي ينبغي العناية بها. لعلّ ما يضاعف من ذلك، تلك المنزلة الاستثنائيّة الّتي تحتلّها دراسة الحقبة الاستعماريّة في زمن العولمة، وأحادية السّيطرة الغربيّة على العالم. هذه الحقبة هي في واقع أمرها تتويج لما سبقها، مع أنّها تنطوي على أبعاد مركّبة، وذات مفاعيل أعظم أثرًا على شعوب عالمنا العربيّ، والإسلاميّ على وجه الخصوص. الشّيء الّذي يفترض نظم سياق التّفكير حيال أحكام العلاقة بين أوروبا، وبقيّة العالم، وإنشائه على منقلب جديد. فلقد تبيَّن لنا كيف قطعت أوروبا – بوصفها الجغرافيا الأصليّة للأطروحة الاستعماريّة، شوطًا كبيراً في استظهار هويّتها، وترسيخ ضعها العالميّ الفريد. حتّى لقد قيل فيها ما لم يُقل اليوم بسليلتها الكبرى أميركا في طريقة سيطرتها على الشّعوب، والأمم الأخرى. أوروبّا هي الّتي صنَّعت فلسفة الاستعمار، ونقلتها على نحو مريع من حيِّز

التّنظير الى طور الممارسة التّاريخيّة. ولئن كانت هي من أذاعت على الملأ مصطلح العالم الثّالث، فذلك يشير إلى أنّ هذا العالم، -ولا سيّما منه العالم العربيّ- سيبوّأ حقل الاختبار الرّئيس لفلسفتها السّياسيّة فضلاً عن حروبها المفتوحة.

نلفت في هذا السّياق نفسه، إلى أنّ المواكبة الدّراسيّة لجذور النّزوع الاستعماريّ غالبًا ما دفعت النّظّار إلى مقاربة الغرب الأوروبيّ بوصفه أرضًا فسيحة لملحمة شبه أسطوريّة. حتّى لقد صار السّؤال «عن ماهيّة أوروبا»، أكثر شَبَهًا بالسّؤال «عن ماهيّة اليونان» قبل عشرات القرون. ومع أنّ لكلّ من السّؤالين سمْتَهُ الخاصّ، إلّا أنّهما يشتركان، ويتقاطعان على دعوى التّأسيس لتاريخ البشريّة. من أجل ذلك بدا الاستفهام عن ماهيّة الغرب الأوروبيّ، ودوره الاستعماريّ بمنزلة استئنافٍ للسّؤال البَدئي، والمؤسّس حول طبيعة العقل اليونانيّ، ومركزيّته على التّفكير البشريّ. وسيكون لهذه المعادلة الاستفهامية الأثر البيِّن في مدِّ الفلسفة الأوروبيّة الحديثة بالعنصريّة الحضاريّة الآتية من السّلف الإغريقيّ. هذا ما سوف نجده حاضرًا في أعماق ما أنجزه الرّوّاد المؤسِّسون لحداثة الغرب، من ديكارت إلى كانط، مرورًا بهيغل، وسائر المتأخِّرين. فهؤلاء الّذين تصدّوا لتظهير الدّلالة الأنطولوجيّة للذّات الغربيّة، سيجعلون من هذه الذّات معيارًا للتّفكير الجوهريّ في ماهيّة الإنسان المعاصر. بسبب من ذلك، سنرى كيف ترتقي الأطروحة الغربيّة إلى رتبة كونها مقومًّاً جوهريًّا لجغرافيّة الرّوح الأوروبيّة على حدّ تعبير هيغل، وهي «الرّوح» الّتي صارت تتحكّم اليوم في بنية الإنسانيّة الحاليّة.

لاحقًا، وفي الحقبة الامبرياليّة الحديثة، سيأخذ فلاسفة، ومفكّرون سياسيّون، وعلماء اجتماع بالأطروحة العنصريّة نفسها، ومؤدَّاها أنّ الغرب قام على تكوين حضاريّ، وميتافيزيقيّ، أفضى إلى تفوُّق الإنسان الأوروبيّ على الإنسان الهنديّ، والأفريقيّ فضلاً عن سائر الأعراق. أمّا التّمثيل الأعلى لمثل هذا الاعتقاد، سيجد تعبيره الصّارخ في اكتشاف المهاجرين الإنكليز، والإسبان أميركا، وتحويلها إلى أيقونةٍ يحكمون بواسطتها العالم

كلَّه. غير أنّ ما هو مفارق في التّجربة الأميركيّة، أنّها قامت أساسًا على الانسلاخ عن أصلها الأوروبيّ، والبَدءِ بأصل جديد. وهذا هو السّبب الّذي جعل التّأسيس الميتافيزيقيّ لأميركا مدفوعًا بعقدة الاستبراء من مصدرها الأوروبيّ. الأمر الّذي أولاه الفيلسوف الألماني مارتن هايدغر عناية مخصوصة لمّا رأى أنّ العالم الإنكلوساكسوني للأمركة، قرَّر تدمير أوروبّا باعتبارها البَدْءِ الخاصّ للعنصر الغربيّ.

***

أنىَّ تعدّدت سمات الاستعمار، ومسالكه، وأطواره، فإنّه يبقى محكومًا بماهيّته الجوهريّة، وهي السّيطرة على الغير بوسائل لا حصر لها. ومن البيِّن تاريخيًّا أنّ الهيمنة الاستعماريّة على دول، ومجتمعات المشرق العربيّ، ومغربه راحت تتواصل بأنماط جديدة تمنح الدّول العظمى فرصا جديدة للهيمنة على ثروات البلدان حتّى من دون احتلالها على نحو مباشر. إلاّ أنّ هذا النّوع من الهيمنة سوف يضاعف من تقويض سيادتها، ويقوِّي سياسات التّدخّل في شؤونها. ولعلّ أبرز الأدلّة على ذلك، ظهور الأمم المتّحدة كان ترافق، ونظام بروتن وودز الّذي أسّس مرحلة جديد، رهنت دول عالم الجنوب لضرب آخر في سياق العمليّة الاستعماريّة، وهو ما أسفر عن نمط جديد للاستعمار، وهو ما سمّي «الاستعمار الجديد» الّذي يقوم على الهيمنة السّياسيّة، والاقتصاديّة الباردة، من دون أن يؤدّي ذلك الى الثّورة، ونشوء حركات التّحرير.

ومن هذه التّحوّلات في العمليّة الاستعماريّة، يظلّ الجوهر الاستعماريّ واحدًا، وإن تعدّدت الأشكال، والأنماط، والوسائط. فقد اقتضى عصر النّفوذ أن يتراجع نمط الاستعمار القديم، بعد الحرب العالميّة الثّانية، ولم يعد بالإمكان الاقتصار على مواصلة الاستعمار عن طريق الغزو المباشر للدّول. وباستثناء محاولة الاستعمار بهدف الاستتباع، والنّهب العنيف خلال الحروب الصّليبيّة على سواحل بلاد الشّام في القرنين الحادي عشر، والثّاني عشر، لم تشهد المجتمعات البشريّة حركة استعماريّة قائمة على النّهب

العنيف، سوى تلك الّتي باشرتها مملكتا إسبانيا، والبرتغال ابتداءً من أواخر القرن الخامس عشر، وكانت تستهدف نهب كلّ ما يقع تحت يدها في المحيط الأطلسيّ، وشمالي إفريقيا، وغربيّها، وصولاً إلى جنوبيّها، و«العالم الجديد»، مُنهيَةً بذلك «شرعيّة» القرصنة الّتي كان يمارسها البحّارة الأوروبيّون، على سواحل أفريقيا الشّماليّة، والغربيّة، وساحل بلاد الشّام، والّتي كانت تقوم على قاعدة «انهب واهرب».

***

مفهوم الاستعمار بوصفه منتجًا تاريخيًّا غربيًّا

إنّنا إذ نعتمد في هذه السّلسلة تاريخ، ١٤٩٣م، بوصفه البداية «الرّسميّة» لحركة الاستعمار الأوروبيّ لمناطق، وشعوب العالمين العربيّ، والإسلامي، فذلك للتّذكير بأمرٍ في غاية الأهمّيّة، والخطورة في تاريخ الحركة الاستعماريّة الغربيّة. نقصد على وجه التّحديد، التّغطية اللّاهوتيّة للحملات العسكريّة على بلدان المشرق الإسلاميّ الّذي عبرَّت عنه خلاصات المرسوم البابوي، الّذي أصدره البابا إسكندر السّادس (رودريجو بورجيا)، وبارك بموجبه ملكيَْ إسبانيا، والبرتغال، لما يقدّمانه من خدمات لنصرة الكنيسة، والتّبشير بالسّيِّد المسيح في مجتمعات آسيا، وأفريقيا. وقد أقرّ الملكان وباركا ما تعاهدا عليه في معاهدة توردسيلاس **(Tordesillas)** عام ١٤٩٣م الّتي تمّ تعديلها عام ١٤٩٤م، حيث تقاسما العالم بينهما، فرسما خطًّا وهميًّا في المحيط الأطلسي يمتدُّ بين القطبين الشّماليّ، والجنوبيّ، حيث فَتَحَ البابا كلّ المناطق المستكشفة، أو الّتي ستُكتَشف غربيّ الخطّ إلى ملك إسبانيا، وشرقيِّه إلى ملك البرتغال.

بناءً على هذا، يصير بالإمكان القول إنّ الحركة الاستعماريّة الّتي باشرها الإسبان، والبرتغاليّون مع نهايات القرن الخامس عشر، هي استئنافٌ واضح المعالم للحروب الصّليبيّة، أكان لجهّة الأهداف، أو الشّعارات، وحتّى لجهّة الأساليب. ولكنّها لم تعُد تقتصر على موانئ، وحواضر العالم الإسلاميّ في البحر الأبيض، بل تجاوزت هذا الحيّز

الجغرافيّ الضّيّق لتشمل شعوب، وحضارات، ومناطق العالم بأسره. وعليه، يربط عددٌ من المؤرّخين بين سقوط القسطنطينيّة بأيدي العثمانيّين عام ١٤٥٣م، والتّطوّرات الّتي شهدتها أوروبّا، ويتّفق الجميع على اعتبار هذا التّاريخ بأنّه نهاية «للقرون الوسطى» الأوروبيّة، وبداية للعصر الإمبريالي الحديث. ويَعْنون بالعصر الحديث، بشكلٍ خاصٍّ، وضع المجتمعات الأوروبيّة على سِكَّة التَّطوُّر، وظهور الدّول المركزيّة، وتطلّع هذه الدّول نحو امستعمرات، وخصوصًا بعد سقوط السّلطنة العلمانيّة، الّتي كانت تشكِّل، حتّى ذلك الوقت، القوّة الأهمّ، والأعظم في التّوازن الدّوليّ. وبالتّالي هي الّتي أدّت إلى إنتاج الانقلاب في التّوازن الدّوليّ لصالح أوروبّا الغربيّة.

إذا كان مفهوم الاستعمار -كما هو معروف وشائع- على منطق الهيمنة، والسّيطرة، إلّا أنّ الاستعماريّة الكلاسيكيّة لم تزدهر إلّا بالاشتراك مع بزوغ الرّأسماليّة العالميّة، الّتي اتّضحت في الحكم الّذي مارسته الدّول الأوروبيّة على مختلف الحكومات في آسيا، وأفريقيا. ولقد بدا ذلك بوضوح حين بلغت المركزيّة الغربيّة حدودها القصوى من الغَلَبة بعد انهيار السّلطنة العثمانيّة، وولادة الاستعمار المستحدث بصيغته الإنكليزيّة، والفرنسيّة مع نهاية القرن التّاسع عشر، وبداية القرن العشرين.

ومع أنّ أغلب الباحثين يتّفقون على أنّ مصطلح الاستعماريّة كانت في الواقع صورة من صور الحكم، ولم يكن في الغالب يصحبها الاستيطان الأوروبيّ، إلّا أنّ هذا المصطلح يبقى يتضمّن إبقاء السّيطرة على دول لم تكن معنيّة بالاستيطان، ولا بالاندماج. في حقل الدّراسات المقارنة، يوجّه مفهوم الاستعمار الانتباه في جميع الحالات نحو المستعمرات ذاتها، في حين أنّ عنوان «الإمبرياليّة» يوجّه الانتباه نموذجيًّا نحو المدينة الأمّ، والنّظام العالميّ، الّذي تعمل فيه الأوامر السّياسيّة، والاقتصاديّة لجعل الإمبراطوريّة شرطًا تكوينيًّا لهيمنة الغرب العالميّة خلال الأزمنة الحديثة. وعليه، فإنّ مجموعة وافرة من المقولات الّتي يستخدمها المستعمِرون، والمستعمَرون على السّواء لفهم الحركة الاستعماريّة كانت

هي نفسها من نتاج المواجهات الاستعماريّة. ورغم أنّ الفعل الاستعماريّ كان متوقّعًا بقوّة الأسلحة المتفوّقة، والتّنظيم العسكريّ، والاستحواذ السّياسيّ، والثّروة الاقتصاديّة، فقد أنتج أيضًا الظّروف المواتية لجميع هؤلاء لكي يأخذوا أهمّيّة أكبر ممّا كان يُتخيَّل من قبل. ولأنّ العقل الّذي كان يقود الحكومات الاستعماريّة في الغرب هو عقل شموليّ، فقد تعدّدت أشكال السّيطرة، وتقنيّاتها، ومعارفها، حيث أتاحت المعرفة الاستعماريّة الفتح الاستعماريّ، وكانت نتاجًا له أيضًا. وهكذا تمّ بناء الأشكال الثّقافيّة في مجتمعات «تقليديّة» مصنّفة حديثًا، وتحويلها بالتّدخّلات الاستعماريّة، ومن خلالها، ممّا ولَّد تصنيفات، وتقابلات جديدة بين المستعمِرين، والمستعمَرين، وإذا كانت أوروبّا تشكّل أساسًا لتاريخ الاستعماريّة، فإنّها أيضًا جزء من مجموعة أكبر من المصطلحات المتقابلة الّتي أنتجتها الاستعماريّة بدورها.

في الحقبة الاستعماريّة المعاصرة ستشهد الجغرافيا العربيّة بجناحيها المشرقيّ، والمغربيّ مسارات هيمنة لا حصر لتقنيّاتها. خصوصًا بعدما تحقّق المزيج القارِّي بين أوروبّا، وأميركا في إطار ما يسمّى اليوم مركزيّة الغرب. وليس من شكّ أنّ مصطلح الغرب سيرتبط ارتباطًا وثيقًا بالثّقافة الاستعماريّة الّتي افتتحتها أوروبا حين بدأت بتوسيع نفوذها إلى القارّات الثّلاث: أفريقيا، وآسيا، وأميركا اللاّتينيّة. والواضح أنّ هذا المصطلح تجاوز معناه الجهويّ بالنّسبة إلى تقسيم الكرة الأرضيّة (شرق - غرب) ليأخذ سماته الحضاريّة باعتباره مركزًا للهيمنة في مقابل الشّرق، ولا سيّما بلدان العالم الإسلاميّ. على أنّ التعبير الّذي اكتسب طابعًا عالميًّا عن «الغرب» لم يطغَ في الاستعمال العام إلاّ عبر القرنين المنصرمين بوصفه التّكوين الرّئيس في أوروبّا الغربيّة الّتي صار يُنظَر إليها باعتبارها كلّيّة الحضور في السّيطرة الاستعماريّة على عموم أرجاء العالم.

قبل عقود قليلة مضت، كان «الغرب» يُستعمل استعمالاً لا غبار عليه بصفته مؤشّرًا تاريخيًّا لقياس الكيفيّة الّتي يكون عليها مجتمع ما في علاقته بآخر، ومن ثمّ لرسم خريطة

موقع جغرافيّ على أساس ثبت زمانيّ تاريخيّ للتّقدم. وتلك إحدى سمات، وزوايا النّزعة الاستعلائيّة الّتي أفضت إلى تشكُّل الظّاهرة الاستعماريّة نظريّةً، وممارسة في الوقت عينه.

***

في حقبة ما بعد الحداثة الاستعماريّة، ستشهد آليّات السّيطرة تغيرّاً جذريًّا، سيكون من أبرز معالمها دخول المعرفة العلميّة قوةً حاسمة في إعادة تشكيل الحال الاستعماريّة، وضمان ديمومتها. في الفكر الاستعماري بنسخته النّيوليبراليّة سيُنظر إلى كلِّ ممكنٍ، وواقعيٍّ بوصفه أمرًا عقلانيًّا. يحصل هذا حتّى لو كان مقتضى الوصول إلى الهدف إيذاء الغير، وانتهاك حياضه السّياديّة. في العقلانيّة الاستعماريّة الّتي ارتكنت الى العلوم الطّبيعيّة معيارًا أوحَدَ لحلّ مشكلات العالم، تجرَّدت الذّات الإنسانيّة من كلِّ محتوى أخلاقيٍّ، وسياسيٍّ، وجماليٍّ. وما ذاك إلّا لأنّ المهمّة الجوهريّة لهذه العلوم تقتصر في مناهج التّفكير الاستعماريّ على الملاحظة «المحضة»، والقياس المحض. ذلك بأنّ تحديد «طبيعة الأشياء»، وطبيعة المجتمع جرى على نحوٍ يبرّر «عقلانيًّا» الاضطهاد، والاستغلال. من هذا النّحو، ستتحوّل خرافة «الحروب العادلة»، وخصوصًا -مع احتلال العراق، وأفغانستان، واستمرار العدوان على فلسطين ولبنان- إلى مقولةٍ سائدةٍ منذ العقد الأخير من القرن الماضي. لم تدرك الحداثة بسببٍ من غفلتها، ومَيْلها المحموم الى السّيطرة، أنّ المعرفة الحقّة، والعقلَ الحقَّ يقتضيان السّيطرة على غلواء الحواس، والتّحرّر من قهر الغير، والسّيطرة عليه. المفارقة في «العقلانيّة» ذات السّمة الاستعماريّة المستحدثة، أنّها حين تُقِرُّ بالقيم الإنسانيّة بصفتها سبيلاً للعدل والسّلام العالميَيْن، تعود لتؤكد وبذريعة العقلانيّة إيّاها أنّ هذه القيم قابلةٌ لأن تتّخذ مكانتها في أسمى منزلة (أخلاقيًّا، وروحيًّا)، ولكنّها لا تُعَدُّ حقائقَ واقعيّةً. تلك معادلةٌ أساس من معادلات فلسفة الاستعمار الّتي بناها العقل البراغماتي الحاكم على حكومات الغرب. مؤدّى هذه المعادلة صراحةً: إذا كانت قيم الخير، والجمال، والسّلام، والعدالة غير قابلةٍ للاستنباط من الشّروط الأنطولوجيّة،

أو العلميّة، فلا مجال بالتّالي لأن نطالب بتحقيقها. فهذه القيم في نظر العقلانيّة العلميّة ليست إلّا مشكلاتٍ تتعلّق بالتّفضيل الشّخصيّ. ولما كانت هذه الأفكار غيرَ علميّةٍ، فإنّها لا تستطيع أن تواجه الواقع القائم إلّا بمعارضةٍ ضعيفةٍ، وواهنةٍ.

لقد جرى التّنظير الفلسفي للعقلانيّة الاستعلائيّة مجرى اليقين في غريزة الغرب الاستعماريّ. فهو حين أسّس «لاهوتيًّا» حملات القوّة، عبر الحروب الصّليبيّة المتواترة، انبرى يسوِّغ عبر الاستشراق الإقناعيّ بأطواره المختلفة لاستعمار المشرق العربيّ، ومغربه. وبناء على هذا المسار، راح الفكر الاستعماريّ يتوغّل في مجمل البناءات الثّقافيّة للبلدان العربيّة، والإسلاميّة زاعمًا أنّ عقلانيّة التّنوير هي الأساس المعرفيّ الّذي ينبغي على نخب البلدان المستعمرة، أن تؤسّس عليه تقدّمها الحضاري. وقد تبيَّن لنا كيف تبنَّت طائفة واسعة من المفكّرين العرب، والملمّين أطروحة الغرب الشّهيرة، فإنّ العقلانيّة التّنويريّة الأوروبيّة هي الرّوح الّذي يسري بلا انقطاع في تاريخ البشريّة، وأنّها البديل للزّمان اللاّعقلانيّ الّذي استولدته جاهليّة القرون الوسطى الأوروبيّة. ولذلك فليس من قبيل التّجريد أن يستنتج إيديولوجيو الفكر الاستعماريّ المعاصر في الغرب مقولتهم الشّهيرة: «أنَّ فنّ تكوين الحقائق بالقوّة القهريّة هو الأكثر أهمّيّة من امتلاك الحقائق». لقد جرى استدعاء هذه المقولة، ورفعها إلى مستوى الاستراتيجيّات العليا ليكون من نتيجتها بلوغ أقصى درجات الّلاعقلانية عبر شنّ حروب الإبادة، وتسويغ نتائجها يوصفها سلوك مشروع، ومعقول، وإنسانيّ. وهكذا لم تعد غاية العقل الاستعماريّ المستحدث الكشف عن جوانب اللاّمعقول في الواقع، بل صارت غايته الكبرى البحث عن الصّيغة الّتي يمكن بفضلها تشكيل الواقع طبقًا للمصلحة. كذلك لم تعد الغاية هي التّجاوز، والتّغيير، بل أصبحت هي التّبرير عينهُ. وبدل أن يكون العقل الإنسانيّ موجِّهًا للواقع المعاصر أصبح خاضعًا لأغراض الواقع ولوازمِه»...

لقد اتّخذت العقلانيّة هنا صفة جديدة كلّ الجدَّة. تحوّلت إلى أيديولوجيةً فظّةً تسوِّغ

لنفسها كلّ ما ترسمه من مطامح. نذكر في هذا السّياق أنّ السّلطة النّيوليبراليّة الحاكمة في الغرب أخذت عند انتهاء الحرب الباردة (١٩٩٠م) فرصتها لكي «تؤدلج» انتصارها، وسيادتها الأحاديّة على العالم. لقد تسنَّى لها بوساطة شبكةٍ هائلةٍ من «الميديا البصريّة والسّمعيّة» أن تعيد إنتاج هيمنتها ثقافيًّا، واقتصاديًّا، ونمط حياة على نطاق العالم كلّه، كان على «عقلانيّة» اللّيبراليّة الجديدة أن تقطع صلتها بالموروث المفاهيميّ لحداثة التّنوير. وها هي تحسم مدَّعاها بتقريرها أنّ تداعيات المشهد العالميّ «لا تعكس فقط نهاية التّوازن الدّوليّ بل نهاية التّاريخ بالذّات: أي نهاية التّطوّر الإيديولوجيّ للبشريّة كلّها، وتعميم الدّيمقراطيّة اللّيبراليّة شكلاً نهائيًّا للسّلطة على البشريّة جمعاء».

لقد أوصل التّنوير ثقافة الهيمنة الغربيّة المدمّرة للذّات، إلى هذا المعدّل السّريع في حركتها. فقد منح السّلطة الإمبرياليّة المسيطرة في الغرب، أساسًا منطقيًّا، أو «أسطورة» للبحث الواعي عن الهيمنة الشّاملة عبر العقل الخادع، والعلم التّقنيّ. فقد بات واضحًا مع خروج الرّأسماليّة الغربيّة من نطاقها القوميّ إلى الفضاء العالميّ، عقلانيّة استعماريّة للسّيطرة حدَّت وظيفة استعمال العقل بجلب المنافع المحضة. مثل هذه العقلانيّة الوظائفيّة راحت تتمظهر مع تعاقب الزّمن كسمتٍ تكوينيٍّ للشّخصيّة الاستعماريّة. فلقد بيّنت اختبارات التّاريخ أنّ من أمْيَز طبائع العقل الاستعماريّ إضفاء صبغة عقلانيّة على كلّ فعاليّة من فعاليّاته يقطع النّظر عن أثرها الأخلاقيّ. إنّ ما ينتج من هذا في آخر المطاف هو أن تتحول العقلانيّة إلى ذريعةٍ فادحةٍ للاستخدام الإيديولوجيّ في الفكر الإمبرياليّ.

***

بعد تجربة الحرب العالميّة الأولى، وصدرو كتاب أزوالد شبنغلر «أفول الغرب»، أصبح الكلام عن نهاية الحضارة الغربيّة طبيعيًّا. على أنّ الموضوع الوحيد الّذي بقي مثار جدل، ليست فقط التّساؤل عما إذا كان الغرب سوف ينتهي أم لا، بل لماذا وما السّبب الّذي جعل الحضارة الغربيّة تمتثل لسؤال النّهايات المريع؟ الإجابة الّتي تبنّتها

مدرسة فرانكفورت على سبيل المثال هي أنّ الحضارة الغربيّة كانت مبنيّة على استراتيجيّة متفسّحة: إستراتيجيّة سحق غرائز الإنسان الحيويّة من خلال السّيطرة العقلانيّة على الطّبيعيّة، وعلى الذّات، وعلى الآخرين.

بهذا المعنى أمكن القول إنّ التّنوير هو السّبب الجوهريّ الّذي سيوصل ثقافة الهيمنة الغربيّة المدمّرة للذّات، إلى هذا المعدّل السّريع في حرتها حرّيّتها. فقد منح السّلطة الأمبرياليّة المسيطرة في الغرب، أساسًا منطقيًّا، أو «أسطورة» للبحث الواعي عن الهيمنة الشّاملة عبر العقل الخادع، والعلم التّقنيّ.

***

سنجد في هذه السلسلة مقاربات معمّقة تدرس بالعرض، والتّحليل النّقديّ لتاريخ الحركة الاستعماريّة في العالمين العربيّ، والإسلامي. ومن المهمّ في هذا الموضع المعرفيّ الّذي نحن بصدد العناية به، أن يتحوّل هذا التّفكير التّحرّريّ النّقديّ للاستعمار إلى منظومةٍ معرفيّةٍ تؤسّس للإحياء الحضاريّ في مواجهة الإقصاء الاستعماريّ المتمادي. فلكي تتّخذ دراسة الاستعمار بأشكاله، وحقوله، ووقائعه المعاصرة – مكانته بصفته واحدًا من مفاتيح المعرفة في العالم العربيّ، والإسلامي، وجب أن تتوفّر له بيئات راعية، ونخب مدركة، ومؤسّسات ذات آفاق نهضويّة، في إطار مشروع حضاريّ متكامل.

***

لعلّنا في هذا المنجز المعرفيّ -الّذي نضعه في تناول القارئ الكريم- نكون قد أفتتحنا أفقًا جديدًا يعمل على تظهير فهم معمَّق لمسارات الحركة الاستعماريّة قديمها، وحديثها، ومعاصرها في بلادنا، ومجتمعاتنا.

وما توفيقينا إلّا من عند الله